

نفحات القرآن

[63] ويتصور البعض أن مبدأ العلية - وهو علم حصولي - يستحصل من العلم الحضوري (النفس) بالنسبة إلى (أفعال النفس) . وفي إيضاح ذلك يقولون أن الروح الإنسانية تحسُّ بأُمور في أعماقها تابعة لها وقائمة بها كالتصور والأفكار والإرادات والقرارات .. هذه كلها أفعال الروح الإنسانية ومعلولة لها ، ومن خلال العلاقة بين هذه الأفعال والروح يمكن أن نكتشف قانون العلية ، ثم يستندون في ذلك إلى قول لابن سينا حيث يقول : " فإنَّ ما لم نثبت وجود الأسباب لمسيبات من الأُمور بإثبات انَّ لوجودها تعلُّقاً بما يتقدَّمها في الوجود ، لم يلزم عند العقل وجود السبب المطلق ، وأنَّ ههنا سبباً ما ، وأمَّا الحسُّ فلا يؤدي إلاَّ إلى الموافاة وليس إذا توافى شيئان وجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر ... (1) . ولا شكَّ في أنَّ هذا خطأ كبير ومن المستبعد أن يقصد ابن سينا هذا المعنى لأنَّ هذه التحليلات بشأن الروح وأفعالها هي من إختصاص الفلاسفة لا عموم الناس ، في حين أنَّ عامَّة الناس يعرفون قانون العلية حتَّى الأطفال منهم ، ولا شكَّ في أنَّ ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسِّية كما أسلفنا ، غير انَّ العقل ما لم يحلِّل هذه التجارب وما لم يجعل من القضايا الجزئية أمراً عامّاً ، فنحن لا ندرك (قانون العلية) ، وعليه فإنَّ الأساس في معرفة هذا القانون هو التجربة إضافة إلى العقل ، ولعلَّ ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره ، بيد انَّنا لا ننكر انَّ الفلاسفة والعلماء يسهل عليهم معرفة العلية من خلال الأفعال النفسية كما يمكن ذلك عن طريق الحسِّ . كما انَّ ثمَّة طريق إستدلال واضح يوصل إلى هذا الأمر ، وهو أنَّنا لو أنكرنا قانون العلية وجب أن لا يكون شيء شرطاً لشيء ، وسوف ينشأ كلُّ شيء من أي شيء ، بل يجب رفض مناهج الإستدلالات العقلية أيضاً . وللوصول إلى

1 - الشفاء : الفصل الأوَّل ، مقالة الإلهيات الأولى : ص 8 .